

السير الذاتية في بلاد الشام

ماهر الشريف وقيس الزرلي (منسقان)

دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2009. 315.

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من الأوراق قدمت في الندوة التي نظمها المعهد الفرنسي للشرق الأدنى بدمشق في 19 و20 حزيران/يونيو 2007، عن السير الذاتية في بلاد الشام بصفتها موضوعاً للدراسة ومصدراً للبحث في العلوم الإنسانية. أما المشاركون في هذه الأوراق فهم خمسة عشر بين كاتب وباحث وروائي وأستاذ جامعي ومؤرخ وناقد أدبي تناولوا موضوع الكتاب من جوانب مختلفة.* وتوزعت أوراق الندوة على خمسة محاور هي:

- 1 - نشوء فن السيرة الذاتية وتعريفها.
- 2 - كتابة السيرة الذاتية: دراسة حالات.
- 3 - السير الذاتية كمصدر للدراسات التاريخية.
- 4 - قصص حياة معاصرة: ممارسات واستخدامات.
- 5 - حفظ المذكرات والأوراق الخاصة وإصدارها.

وقد حاول مقدمو الأوراق إبراز أهمية السير الذاتية في بلاد الشام خلال فترات تاريخية متنوعة، الأمر الذي جعل هذه الكتابات مصدراً من مصادر البحث الذي يُعتمد عليه.

وفي حين اتفق الكُتاب على صعوبة إيجاد تعريف موحد للسيرة الذاتية، حاولوا تقديم تعريف من خلال مقارنة مصطلح السيرة الذاتية بمصطلح المذكرات. فالسيرة، في هذا الحقل، تتفق مع المذكرات في أحيان كثيرة، لكنها تختلف عنها في أحيان أخرى. ويرى بطرس حلاق أن السيرة الذاتية تشمل المذكرات واليوميات، بحيث تتناول المذكرات أحداثاً سياسية واجتماعية انخرط فيها المؤلف بصفته فاعلاً أساسياً أو مجرد شاهد، أما اليوميات فتركز على حياة المؤلف وما عايشه من أحداث عادية وغير عادية.

وبشكل عام، يمكن القول إن الأوراق تقدم تساؤلات عن السير الذاتية وعمّا جاء في كتابات عدد من الشخصيات في هذا الموضوع، فنحن لا نرى نماذج لهذه السير فحسب، بل نجد أنفسنا أيضاً أمام معالجة لكل واحدة من هذه السير بشكل علمي يناقش أهمية هذا النوع الأدبي كمصدر من مصادر البحث في العلوم الإنسانية.

ومن المفيد تقسيم محتوى الكتاب إلى ثلاثة عناوين، أو أسئلة، بغض النظر عن محاوره الخمسة:

الأول: كيف نقرأ الأوراق؟

الثاني: ما موقع السيرة الذاتية في تاريخ بلاد

الشام؟

الثالث: إلى من تتوجه هذه السير؟

وفي العنوان الأول، يمكن القارئ أن يضع

الأوراق ضمن قسمين:

- الأول، تناول السيرة الذاتية من زاوية نظرية كي يشرح أهميتها كمصدر من مصادر البحث بغض النظر عن الشخصيات، ومن دون إغفال الأمثلة. وقد ضم هذا القسم ثماني أوراق كتبها محمد كامل الخطيب، ويمنى العيد، وبترس حلاق، وماهر جرّار، وعصام نصّار، وأنيسة عبّود، وعبد الله حنا، وعمار السمر.

- الثاني، استند إلى سير ذاتية لشخصيات

معروفة في بلاد الشام، وحاول دراسة هذه السير مستخلصاً أثرها في إغناء تاريخ بلاد الشام. وبلغ مجموع الأوراق في هذا القسم سبعة من مجمل أوراق الكتاب، كتبها جمال شحيّد، وإريك غوتيه، وماهر الشريف، وأن لور دوبون، وقيس الزرلي، وريم منصور الأطرش، ورضوان الأتاسي.

أما في العنوان الثاني، فقد ركزت الأوراق على السير الذاتية في بلاد الشام حصراً، فتناولت سورية ومدن عمّان والقدس وبيروت. ومن هذه السير تعرفنا إلى أحوال هذه المناطق في الفترة ما بين أواخر العهد العثماني حتى الانتداب بعد الحرب العالمية الأولى، وخلال أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي.

ربما لم يأت اختيار بلاد الشام عبثاً، وذلك لأكثر من سبب، منها أن المنطقة كانت ولا تزال محوراً لقضية فلسطين والشرق الأوسط، وتاريخها يعني تاريخ السياسة والنضال ممزوجاً بنكهة الثقافة والأدب والعلم. ولهذا، كانت أغلبية السير، من زاوية أو أخرى، تلقي الضوء على الأحوال السياسية للمنطقة، وعلى ما عايشه صاحب السيرة من أحداث في وقت كتابتها. أضف إلى ذلك، أن بلاد الشام تضم شرائح متنوعة من النواحي الدينية والثقافية والسياسية، وهذا ما جعل السير الذاتية غنية ومتنوعة.

فعيد الرحمن منيف، الروائي السعودي، في روايته "أم الذنور" و"سيرة مدينة" يحكي تاريخ عمّان في أربعينيات القرن الماضي، من حيث الدين والعادات الشعبية ذات الطابع الديني، مع محطات تاريخية، في شكل يبدو كأنه سيرة ذاتية للكاتب.

وفي حالة عبد الرحمن منيف، تظهر قيمة الرواية عندما نتحدث عن الذات، فتبدو بطريق غير مباشر،

كأنها سيرة ذاتية لكاتب أثر أن يختبئ وراء شخصيات روايته.

كذلك الأمر في السيرة الذاتية لجرجي زيدان، والتي تلقي الضوء على التغيرات التي شهدتها مدينة بيروت في أواخر العهد العثماني، فقد سلط زيدان الضوء على ما عُرف بعصر النهضة، لكنه، وهو الذي روى من خلال سيرته التغييرات التي حدثت في مدينة بيروت في مرحلة تاريخية معينة، ترك لنا أيضاً رواياته التاريخية التي، بدورها، رسمت لنا صورة، بغض النظر عن موضوعيتها، عن التاريخ الإسلامي بمختلف مراحلها.

وفي مذكرات محمد كردعلي، نقرأ تاريخاً لحياته في سورية خلال الحرب العالمية الأولى، وفي أثناء الانتداب الفرنسي، مع ما شهدته تلك الفترة من أحداث تاريخية كان لها ارتباط بحياة محمد كردعلي. وكذلك الأمر بالنسبة إلى السيرة الذاتية لمنصور سلطان الأطرش وهاشم الأتاسي. أما فلسطين، فلها الموقع المتفرد في هذه الأوراق، فالسيرة الفلسطينية بحسب بطرس حلاق، تتميز من الرواية العربية المعاصرة بعناصر عدة منها: تأكيد الترابط بين الذات الفردية مع نوات فردية أخرى تعبر عن جماعة محددة تتشارك المصير ذاته، أي ما أطلق عليه مصطلح، عبر – الفردية. وفي هذا الإطار، يرى عصام نصار أن معظم الأبحاث التاريخية عن مدينة القدس إنما هو أسير لقدسية المدينة، كما أن تأريخ هذه المدينة، برأيه، يعكس رؤية الكاتب السياسية والدينية، ولا سيما أن القدس جزء من الصراع العربي – الإسرائيلي.

بالانتقال إلى الجانب العملي من هذه الأوراق، نتوقف أمام الشخصيات التي تناولت الأوراق سيرها الذاتية. فنجد أدباء ومؤلفين أمثال: جبرا إبراهيم جبرا؛ عبد الرحمن منيف؛ محمد كردعلي؛ جرجي زيدان؛ ومن ناحية ثانية نجد رجال سياسة أمثال: أحمد الشقيري؛ منصور سلطان الأطرش؛ هاشم الأتاسي. أما ورقة ماهر جرّار، فسلطت الضوء على مذكرات المثقفين الإنجليبيين العرب في مناطق عدة من بلاد الشام، وهؤلاء كان منهم رجال أدب وتاريخ وسياسة أمثال: إدوارد سعيد؛ أنيس صايغ؛ كمال الصليبي؛ أنيس فريحة؛ أسعد الشدياق؛ وغيرهم.

لكن النقطة التي تستوجب التوقف عندها هي التفاوت في طريقة الكتابة. ففي حين نجد من يعرض الأمر في العمق، طارحاً تساؤلات، ومصححاً بعض المعلومات أحياناً، نرى في أوراق أخرى مجرد عرض للسيرة الذاتية من دون أي إضافات، وهو ما يلاحظ في ورقة ريم منصور الأطرش التي تحدثت عن طريقة إعداد كتاب يتناول سيرة حياة والدها منصور سلطان الأطرش، وكذلك في ورقة رضوان الأتاسي، الذي عرض السيرة

الذاتية لهاشم الأتاسي.

إلا إننا عندما نقرأ ورقة ماهر الشريف عن مذكرات أحمد الشقيري، نجده يشبعها درساً من نواح عدة. ففي حين يعتبر الشريف مذكرات الشقيري مصدراً ومرجعاً لدراسة المرحلة الأولى من مراحل تاريخ منظمة التحرير الفلسطينية، نراه في أماكن أخرى يطرح تساؤلات عن صدقية بعض المعلومات، كما نجده يجري تصحيحاً لتواريخ ومعلومات يعتبر أن الشقيري أخطأ فيها أو غفل عنها. أما المميز في طريقة تناول هذه المذكرات فهو ما يطرحه لنا ماهر الشريف من تساؤلات، ومنها:

إلى أي حد يمكن لكاتب المذكرات السياسية أن يلجأ، في معرض انتقاده للآخرين الذين تعامل معهم، إلى أسلوب التشهير؟ وهل يجزئ كاتب المذكرات على البوح بالحقيقة كاملة؟ هذان السؤالان مشروعان فيما يتعلق بالمذكرات واليوميات والسير الذاتية، وحتى الكتب التاريخية عامة، إذ كثيراً ما تساءلنا ونحن نقرأ كتب التاريخ عن صدقية الوقائع التي تُروى، ففقرأها ونحفظها ونرددتها حتى تصبح مسلمات، لكننا في مكان آخر، عندما ننعم النظر في التاريخ، نخلص إلى أن المنتصر والأقوى هو من يكتب هذا التاريخ، فهل كل ما قيل كان حقيقياً؟

لو ذهبنا بعيداً في هذه الفرضيات، لكان مبدأ الشك في كل ما نسمع ونقرأ هو الغالب. ولهذا كان لا بد من القبول بنوع من النسبية، إن صح التعبير، في هذه الأنواع من الكتابات، أي أن نأخذ منها ما يتطابق إلى حد كبير مع الحدث ومع الواقع. ويذهب الشريف بعيداً عندما يطالب كاتب المذكرات بأن يقص تجربته كما عاهاها، وأن يقنع الآخرين بصحة مواقفه. وفي الواقع، هذا ليس طلباً، وإنما هو من باب التمني. لماذا؟ لأن من يكتب مذكراته أو سيرته الذاتية، يفعل ذلك وهو يعتقد تماماً أنه يضع تجربته أمام القارئ، وأن الاقتناع أو عدمه، هو من مهمة القارئ.

وتعطي اليمنى العيد جواباً عن هذه التساؤلات، عندما تتساءل بدورها عن قيمة المعرفة التي تقدمها السير الذاتية، بما أنها سرد من الذاكرة يستوي على مستوى المتخيل. نعم، هنا تكمن النقطة الحساسة في طرح الموضوع، فكل ما نقرأه من مذكرات وسير ذاتية، يأتي على قياس المتخيل وما يريد أن يخبرنا به.

ومع تحفظ المشاركين عن العنصر الشخصي للسير الذاتية والمذكرات، يجب أن نعترف بأن الكاتب بشكل عام، في مجال العلوم الإنسانية، لا يستطيع إلا أن يعطي من ذاته الشخصية في كتاباته، أكان ذلك مباشرة، أو بطريقة ربما نقرأها بين السطور. وقد أشار عمّار السمر إلى هذا الأمر عندما لفت إلى أن قيمة المذكرات تتحدد بمدى

بعدها عن التحيز ومطابقتها للواقع قدر المستطاع، وذلك لاستحالة الموضوعية المطلقة. فالسيرة الذاتية، تبقى أولاً وأخيراً، كما يُطلق عليها، "سيرة ذاتية". أي هي سيرة تتعلق بالفرد، والفرد لا يستطيع إلا أن يُظهر "الأنا" بين السطور بشكل أو بآخر، حتى لو جرب أن يكون موضوعياً. ولهذا، نرى الأنا تظهر بشكل صارخ في بعض المذكرات والسير، حتى ليخال للقارئ كأن كاتب السيرة هو الذي صنع أحداث زمانه مباشرة أو غير مباشرة. ومهما يكن الأمر، ففي العلوم الإنسانية، لا توجد موضوعية مطلقة، وإنما تقاس الصدقية بمدى هذه الموضوعية التي ربما تختلف نسبتها بين كاتب وآخر.

أما العنوان الثالث فهو عن الأوراق التي تحدثت عن كتاب السيرة الذاتية، والتي بيّنت إيجابيات هذا النهج الأدبي وسلبياته. لكن الأوراق لم تتطرق إلى القارئ، فقراء السير الذاتية نوعان: نوع يقرأ بهدف تفصي الحقائق، واستخلاص معلومات معينة، وهنا يحاول القارئ الباحث، أن يمحص السيرة الذاتية، بين ما يقنعه وما لا يقنعه، طارحاً التساؤلات، ومحاولاً الحصول على الإجابات. أما النوع الثاني، فهو القارئ العادي الذي يقرأ السيرة الذاتية، فيأخذ ما ورد فيها كمسلمات، وهنا، لا نكون بحاجة إلى وسائل إقناع أو معيار معين من الصدقية. إذ، إما أن يكون القارئ من مؤيدي هذه الشخصية فلا يعترض، وإما ألا يكون، وفي هذه الحال، ربما ينحو إلى تكذيب ما ورد على لسان الكاتب، أو في أفضل الحالات، لا يبدي اقتناعاً بما ورد من وقائع. ونشير هنا إلى أن اعتماد السير الذاتية والمذكرات كمصدر من مصادر البحث، يرتبط إلى حد كبير بنوع البحث. ففي الكتابات التاريخية والسياسية، تبدو الاستعانة بالمذكرات واليوميات والسير الذاتية، أمراً ضرورياً، وخصوصاً إذا دعت الحاجة إلى نوع من الشهادات أو أوراق شخصيات معينة. ولهذا تكثر الاستعانة بمذكرات السياسيين في الأبحاث والكتابات المتعلقة بأحداث تاريخية، كالحروب والأزمات وغيرها...

أخيراً، نشير إلى عدد من الملاحظات:

- أشار عصام نصّار في ورقته إلى أهمية

الصور الفوتوغرافية في إغناء المذكرات

واليوميات. وهنا نؤكد أهمية الصورة في تعزيز

قيمة المذكرات من ناحية، وما ترسمه في مخيلة

القارئ من واقع يقفز من حيز الكلمة الصماء إلى

صورة تبدو ناطقة أحياناً. وقد اعتمد بعض الكُتُب

الصورة أساساً لتأريخ مرحلة معينة، كما في كتاب

وليد الخالدي، "قبل الشتات"* الذي يؤرخ لفلسطين

قبل سنة 1948، عبر رحلة مرئية تعتمد الصورة.

- تحدثت أنيسة عبود في ورقتها عن كتابة

النساء، وعن المدونات الإلكترونية كطريقة باتت

تُعتمد لتدوين الكتابات على الصفحات الإلكترونية

بشكل يسمح بالتخفي. ونشير هنا، إلى أننا لا ننصح بالاستعانة بكل ما يُكتب في هذه المدونات، ولا سيما أن صفحات الإنترنت باتت مفتوحة ومتاحة للجميع، وبتت المعلومات في هذه الصفحات تشنابك، بين صحيح، ومخلتق، ومنقول عن، إن لم نقل مسروقاً. ولهذا، فإن النقل عن هذه الصفحات، يجب أن يُحصَر بالباحثين القادرين على تمييز الصحيح من الغلط تجنّباً للوقوع في فخ العشوائية وعدم الدقة.

- يقول عصام نصّار إن مذكرات الناس

العاديين، لا القادة السياسيين، تشكل مصدراً من

مصادر دراسة تاريخ القدس، ويعطي مثلاً لذلك،

كتابات الموسيقي واصف جوهرية، والمربي خليل

السكاكيني. ونضيف هنا، أن أهمية المذكرات التي

يكتبها القادة ورجال السياسة، تكمن في موقع هؤلاء

في الحياة السياسية. أمّا الناس العاديون، وحتى

البسطاء منهم، فلا تقلّ مذكراتهم أو أقوالهم أهمية

لدى الباحث الساعي لتغطية حدث ما. فالإنسان

العادي يتحدث عن تجربة مجموعة من البشر،

بعيدة عن مستوى صنع القرار والغايات الشخصية،

وبالتالي تتميز في مواقع كثيرة بالصدق والعفوية

أكثر من غيرها.

وهذه الملاحظة تقودنا إلى ما ذكره عبد الله حنا

في ورقته عن أهمية التاريخ الشفوي، وخصوصاً

ذلك الذي يتعلّق بالطبقات الدنيا. ونحن هنا نؤكد

أهمية التاريخ الشفوي الذي يعرف بأنه عملية تدوين

لذاكرة البشر بهدف الحصول على حقائق أو

إسنادات في شأن وقائع معينة حدثت في الماضي،

ثم توثيقها كي تصبح مصدراً من مصادر

المعلومات. كما يعرفه البعض بأنه وسيلة لإعادة

رسم الحياة بأحداثها وتفصيلاتها وألوانها ورائحتها،

عبر استرجاع الذاكرة بكل مخزونها. وهنا يصح

القول إن التاريخ الشفوي هو توثيق للذاكرة

الجماعية في مجتمع ما. أمّا الفارق بين مفهوم

الدراسة الميدانية وبين منهج التاريخ الشفوي،

فيلتخص في أن الدراسة الميدانية تعني تحديد منطقة

جغرافية معينة، وانتقاء مجموعة من الأفراد، للقيام

بدراسة أو بحث أكاديمي معين، وهي ما يُعرف

بمصطلح field studies. أمّا التاريخ الشفوي،

فهو منهج بحثي، يعتمد توثيق الذاكرة الجماعية في

شأن حدث ما، من دون التقيّد بالعامل الجغرافي، أو

التقيّد بشريحة بشرية محددة. وتاريخ فلسطين غني

بالكتب التي اعتمدت هذا المنهج، وخصوصاً تلك

التي أرّخت للنكبة. وكتاب بيان نويهض الحوت

على سبيل المثال نموذج في هذا الميدان، فهو أرّخ

مجازر صبرا وشاتيلا، في أيلول/سبتمبر 1982،

واعتمد في قسم مهم منه على روايات وشهادات عن

المجزرة، تم الحصول عليها، في أماكن وأزمنة

مختلفة.

السيرة الذاتية، بشكل عام، مصدر للبحث عندما

يعرف الباحث كيف يستفيد منها، وعندما يكون

يستفيد من تجارب أناس تعرّف إليهم من خلال صفحات كتاب قرأه ربما بطريق المصادفة.
سناء حمودي
كاتبة فلسطينية

قادراً على دراسة السيرة الذاتية بطريقة علمية وموضوعية ودقيقة تزيد في صدقية البحث. والسيرة الذاتية، للقارئ العادي، مصدر متعة واستكشاف، تجعل القارئ يسافر إلى مدن ودول ربما لم يزرها، فيتعرف إلى أماكن وأشخاص، ثم

(* المشاركون بحسب الترتيب الذي اعتمده الكتاب هم: محمد كامل الخطيب؛ يمنى العيد؛ بطرس حلاق؛ ماهر جرّار؛ جمال شحيّد؛ إريك غوتيه؛ عصام نصّار؛ ماهر الشريف؛ أن لور دوبون؛ قيس الزرلي؛ أنيسة عبّود؛ عبد الله حنا؛ ريم منصور الأطرش، رضوان الأتاسي؛ عمار السمر.

(* وليد الخالدي، "قبل الشتات: التاريخ المصوّر للشعب الفلسطيني، 1876 - 1948" (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1987).